١

عـودة أمريكـــا

كـان مجـد أمريكا قد بهر الأبصار بعد حرب الخليج حتى أن أكاليل الشرائط المعقودة فوق مدخـل البـيت الأبيـض احتفالا بجـورج بـوش ، كادت تنسينا أن شعار « أمريكا تعود » كان قد رفعه ونفذه من قبل رونالد ريجان .

ومـع ذلك فـإن أمريكا رونالـد ريجـان لا تكف حتى الآن عن التألق فى كافة أنحاء العالم .

ففى نصف الكرة الأرضية الجنوبى ، لاتزال رأسمالية ريجان الغازية تستهوى متخذى القرارات الغارقين فى الديون والاقتصاد الموجه ، وحتى المثقفين . فمن برازيليا حتى لاجوس ، تجسد أفكار ريجان أكثر فأكثر النجاح والديناميكية والازدهار منذ الثمانينات .

أما العالم الشيوعى فيبدو أنه زكى رونالد ريجان بالمعنى الصريح للكلمة فى اندفاعة واحدة ، بل وألهه (ومعه مارجريت ناتشر) خلال سنتى ١٩٨٩ - ١٩٩٠ اللتين شهدتا قمة الانهيار . ففى بودابست أصبح الحزبان المجريان المنتدى الديمقراطى وتحالف الديمقراطيين ، لا يتصوران أى حل آخر سوى اقتصاد السوق فى صيغته الخالصة والحازمة . وفى بولندا تم تشغيل ناديين ليبراليين فى جدامسك وكراكوف اعتبرا رونالد ريجان ومارجريت ناتشر الصورة الرمزية لهما . أما خطة بالسيروفيتش (باسم وزير الاقتصاد والمالية الشاب) التى طبقت بشجاعة وقدر من النجاح فى بولندا ، فقد استوحت بصراحة تامة النموذج الريجانى . وهذا بالطبع عدا نسبة الأصوات المذهلة التى حصل عليها فى الجولة الأولى من انتخابات الرئاسة فى نوفمبر ١٩٩٠ المدعو ستانسلاف تيمينسكى ، وهو شخص مجهول لا يعرف سوى المفردات الأساسية فى لغة بلده وما كان ريجان لينكره ، إذ كان يعلن : كوّنوا ثرواتكم كما فعلت أنا شخصيا ! وهذا

الانتصار الشعبى للريجانية الذى بلغ قمة الكاركاتورية لايدعو أبدا للدهشة ، إذ أن الجميع أضحوا مقتنعين تماما بأن الشيوعية تجسد الشر والفشل المطلق ، وباتوا مهيأين للإيمان بأن الرأسمالية ستكون أقرب إلى الخير المطلق كلما كانت أنقى وأشد حزما .

وقد كتب تيموثى جارتون آشى ، وهو من أحسن الخبراء البريطانيين فى شئون بلاد شرق أوروبا الذين تابعوا « ثورة ١٩٨٩ » خطوة خطوة ، كتب يقول فى مؤلفه الصادر فى عام ١٩٩٠ (*الغلاّية* ، الناشر جاليمار ، ١٩٩٠) : « يمكننا أن نقول إن السوق الحرة هى آخر الأحلام الطوبوية فى وسط أوروبا » .

يوتوبيا ، معجزة ... بالقطع فإن تلك هى « المعجزة » التى تراود المواطنين الخمسمائة أو الستمائة الذين يضربون الأرض كل يوم « محلك سر » فى ميدان بوشكين بموسكو ، لكن يصلوا بعد الانتظار فى طابور ، طوال ثلاث ساعات ، إلى مطعم ماكدونالد الذى افتتح فى عام ١٩٩٠ ، وأطلق عليه تسمية « الضريح الجديد ». وحتى فى بكين أصبح اسم ريجان معروفا للمواطن الصينى العادى ، وهو يحظى أيضا باحترام مشوب بالخشوع .

ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الابتسام إزاء تلك « السذاجات غير المألوفة » . فعندنا فى أوروبا الغربية لا يزال هذا التيار الفكرى نفسه مهيمنا ، بينما لم يعد كذلك فيما وراء الأطلنطى . لقد أصبحت الصيغة الجديدة المقدسة التخلى عن القواعد المنظمة للأمور ، وانحسار دور الدولة ، وتخفيض الضرائب ، والإشادة بالربح من أجل الربح . أما عن « المناخ العام » فلا مغالاة فى القول بأنه أصبح « ليبراليا » بشكل فاضح . وبالطبع غدا البعض فى الأوساط اليمينية فى سنوات ١٩٨٦ – ١٩٨٨ ريجانيين أكثر من ريجان نفسه ولكن لا يملك المرء إلا أن يبدى دهشته عندما يكتشف عند اليسار أيضا فضائل الربح ومزايا أرباب العمل تحت أنقاض « البرنامج المشترك » لليسار الفرنسى (الحزبين الاشتراكى والشيوعى من عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٧٨) .

بل إن ريجان انتصر كذلك ، ومعه مارجريت تاتشر ، وسط الدول الاثنتى عشرة التى تتكون منها السوق الأوروبية المشتركة . وقد انهزمت حقا مسز تاتشر داخل حزبها بالأخص لتصديها للبناء الأوروبى ، ولكن أفكارها هى التى ألهمت فى الواقع « سوق

المستقبل الكبيرة لعام ١٩٩٢» التى عظمت من شأن الجانب التجارى وأصابت الناحيتين السياسية والاجتماعية بالضمور بالرغم من جهود جاك ديلور رئيس المفوضية الأوروبية والبرلمان الأوروبى . فالأمر يتعلق إذن بصفة عامة بسوق ، بل بسوبر ماركت . فلم يشهد التاريخ أبدا من قبل هذا الحجم من الاندماج التجارى المصحوب بمثل هذا القدر الضئيل من السلطة السياسية المحصورة فى إطاره . وفى هذا المجال تم تجاوز الولايات المتحدة ذاتها .

وبصفة عامة ، وبطريقة ملتوية ، يبدو أن « قيم » ريجان ، سواء كانت صحيحة أو زائفة ، باتت مستقرة . وكأن التشاؤم الأوروبى الغابر قد حلت محله صيغة ليبرالية أخرى مفتولة العضلات وإن كانت محدودة . فقد غدت أوروبا أيضا ، بطريقة ما وبالوكالة ، انعكاسا لانتصار راعى البقر السابق فى البيت الأبيض ولحرب النجوم . فالثناء ينصب على « الكسيبة » بينما شاع التغاضى عن الجوانب الاجتماعية وعمّت اللامبالاة بالمهمشين ، وانتشرت عبادة التفوق الإنتاجى وتواصل التفاؤل .

غير أنه بالأخص انتصار لمفهوم خاطئ ، إذ أن أوروبا التى أساءت التقدير فى الماضى بالمغالاة فى تقدير قوة الاتحاد السوفيتى الاقتصادية ، اختلط عليها الأمر الآن بخصوص أمريكا . فهى تجد صعوبة فى كشف جوانب ضعف أمريكا فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، الكامنة خلف قوتها العسكرية . وهذا المفهوم الخاطئ لا يمكنه أن يتعلل بالأعذار التى كان يوفرها الغموض الشديد المحيط بالكريملين ، والعتامة الإعلامية المفروضة على الاتحاد السوفيتى ، والنجاحات المزعومة ، والإحصائيات المزورة . فأمريكا ـ أول دولة ديموقراطية فى العالم وأكثرها شفافية ـ تتخبط تحت الأضواء الساطعة التى تخطف الأبصار حقا .

الانفجار الأمريكى الكبير

لكن هذا الانفجار العظيم (البيج باغ) الذى نتج عنه « الضوء الأمريكى » الخاطف للأبصار ، والذى لا يزال يشع حتى الآن ـ بدون حق فى الغالب ـ فى العالم بوجه عام ، هل كان يتعين أن يكون مدويا إلى هذا الحدّ وأن تكون نشأة الريجانية فى بداية الثمانينات مبهرة لمن يراها من الخارج ؟ ماذا حدث إذن آنذاك ؟ ولماذا ؟ من المستحسن أن نعرف من أين جاءت الأسطورة حتى نكشف النقاب عنها .

فالشعار « أمريكا تعود » الذى رفعه رونالد ريجان فى عام ١٩٨٠ ، قبل فوزه برئاسة الولايات المتحدة ، كان يرمى إلى إيقاظ همة الأمريكيين وتدارك أثر الهزيمة فى فيتنام وإحياء أسطورة الرواد الأوائل الذين انشأوا أمريكا . كانت تلك الصحوة ملحة للغاية بالنسبة للدولة الكبرى الأولى فى العالم المتخبطة فى أزماتها الداخلية والمهانة فى الخارج ، خاصة فى جانب إيران الخومينية ومشكلة الرهائن ، والتى كانت تهددها ، كما كانت تتصور ، الهيمنة العسكرية السوفيتية ، وتعانى من المنافسة على يد البلدان الأوروبية واليابان .

كيف وصلت الأمور « بالامبراطورية » الأمريكية إلى هذا الدرك ؟ وما هى المسارات الغامضة للوعى الجماعى تحت تأثير الشك فى النفس والبلبلة التى دفعته إلى أن يعهد بمصيره إلى ممثل له أفكار قوية وإن كانت مختصرة ، ورجل من الغرب يتحلى بأخلاقيات تقليدية وأيديولوجية قديمة بشكل غير واضح ؟ ولماذا اجتاحت تلك « الثورة المحافظة » المباغتة مجتمعا منفتحا وحديثا إلى أقصى درجة ، كان يحتفل قبل ذلك بسنوات قليلة بغلاة الإصلاحيين من فريق ماكجفرن وتجارب *العهد الجديد* فى كاليفورنيا ؟ ومن أين انبثقت إرادة القوة المفاجئة هذه والرغبة فى الثأر ؟

إنها أسئلة لم يتقادم عليها العهد بعد ، بل إن تقديم الإجابة عليها ملح إذا كنا نريد أن نفهم الوضع الراهن فى أمريكا ، أمريكا جورج بوش ، والاستدانة فى ظل الأمجاد ... غير أن فهم الرأسمالية الأمريكية يتطلب أن نضع فى اعتبارنا المدى الطويل والتطورات العميقة المهملة للغاية فى الكثير من الأحوال . وهناك فى الواقع بعض المعطيات الأساسية يرجع إليها فى آن واحد ضعف أمريكا وقوتها على حدّ سواء .

أسباب مهانة أكثر من اللازم وقدر من اليقين غير كاف

لقد اتفق وصول رونالد ريجان إلى البيت الأبيض مع حالة اضطراب خاصة مترسبة فى الوعى الأمريكى يمكن تلخيصها فى : أسباب إذلال أكثر من اللازم وقدر من اليقين لا يكفى .

ففيما يتعلق بأسباب الإحساس بالخزى ، كانت السنوات العشر السابقة على انتخاب ريجان عامرة بسلسلة لا نهائية من الهزائم الدولية النكراء التى لحقت بالولايات المتحدة .

وكان الاندحار فى فيتينام وكمبوديا نذيرا بتقهقر عام لا مفر منه . وفى نفس تلك الفترة كان الاتحاد السوفيتى وحلفائه الكوبيون يسجلون فى إفريقيا نقاطا بدت حاسمة فى أثيوبيا وانجولا وغينيا بيساو وموزمبيق . وفى الشرقين الأدنى والأوسط فقدت الولايات المتحدة من خلال شاه إيران ، شرطى الخليج ، خير حليف لها فى المنطقة ، وظلت عاجزة عن التحكم فى الحرب الأهلية اللبنانية التى بدأت فى عام ١٩٧٥ ، بينما كان زمام المبادرة فى يد سوريا على نطاق واسع ، وراح كيسنجر يبذل الجهود لكى تقبل إسرائيل اتفاقيات فض الاشتباك فى سيناء . وفى أمريكا الوسطى ، وعلى أعتاب الولايات المتحدة نفسها ، كان سقوط سوموزا فى نيكاراجوا وتولى الساندينيون السلطة نذيرا بزوال مبدأ مونرو الذى تقرر بمقتضاه أن تكون أمريكا اللاتينية الحديقة الخلفية للولايات المتحدة وحصنها المنيع .

ففى كل أنحاء العالم كان النفوذ الأمريكى بادى التراجع لصالح التوسع السوفيتى . وكان علم الولايات المتحدة يُحرق فى شوارع النصف الجنوبى من الكرة الأرضية ، وراحت التحديات تواجه أمريكا والهتافات تنطلق ضدها والاتهامات توجه إليها . تلك كانت صورة العالم التى كان يسجلها كل يوم المتفرج المتوسط على التلفزيون فى هيوستون أو سبرينج فيلد أو ديترويت . وهذا الإذلال والسأم كانا مصحوبين بقدر من الحنق العاجز . وما كان الأمر يتطلب المزيد لكى ينشأ شيئا فشيئا وسط الرأى العام حنين غامض إلى العظمة الغابرة والقوة المفتقدة . ولو لم يكن ريجان قد تواجد بأفكاره الواضحة ومفردات لغته المستخدمة فى جانب جون واين ، لكان من الضرورى قطعا أن يتم اختراعه تحت شعار « *أمريكا تعود* » .

ومن المؤكد أن الأمر المؤلم للغاية وسط هذا الفيض من الإهانات كان ذلك العجز الخطير فى رصيد اليقين الذى كانت تشعر به أمريكا بشكل مبهم . وكانت السبعينات هى أيضا سنوات سوداء على هذا الصعيد . فقد حل الشك محل اليقين واحتلت « العلة الأمريكية » التى اتخذها ميشيل كروزييه عنوانا لأحد مؤلفاته ، محل « *الحلم الأمريكى* » ولكن أى علة هى ؟ تناول كروزييه تلك الفترة التى قضاها فى هارفارد حيث كان يقوم بالتدريس هناك قبل ذلك بعشر سنوات . وقد وصف شعوره قائلا : « كان كل شئ مماثلا لما كان عليه من قبل ، ولكنه كان مختلفا مع ذلك . لقد تبدد الحلم ولم

تتبق منه سوى كلمات وبلاغة خاوية » (*العلة الأمريكية* ، الناشر فايار ، ١٩٨٠) .

غير أن هذه العلة الأمريكية ليست من حالات الإحباط المبهمة التى تنتاب الأمم أحيانا ، بل كانت تنال من القوانين والمؤسسات التى تستند فى هذا البلد على الكتاب المقدس والدستور ، وتعتبر الوطن الحقيقى عند كل مواطن . وكانت أزمة ووترجيت والأكاذيب ، ثم استقالة ريتشارد نيكسون قد زعزعت تلك الثقة بشكل خطير ، حتى أن رئاسة جيمى كارتر تميزت بوهن السلطة التنفيذية ، بينما لم يكن الكونجرس البديل المتمتع بالمصداقية .

كيف يمكن إذن أن تُحكم الدولة الكبرى الأولى فى العالم بينما تشل مبادئ *راقب الأمور ووازنها* المستوحاة من مونتيسكيو ، تشل السلطة التنفيذية بالمعنى الحرفى للكلمة ؟ ويحكى كيسنجر فى مذكراته كيف تعين عليه أن يراوغ باستمرار لكى يحمى بعض الأسرار الأساسية فى تنفيذ سياسته الخارجية .

وفى ظل هذا المناخ كان الامتناع التقليدى عند الأمريكيين عن التصويت فى الانتخابات السياسية (نادرا ما كان يقل عن ٥٠٪) بلغ بكل بساطة حد النفور منها . وفى نهاية الستينات كان الرأى العام لا يتوقع أى شئ هام من السياسة ، ولكن كان ينتظر بغير وضوح مجئ المنقذ .

ولم يقتصر الأمر على ذلك . فهناك علل أخرى خبيثة راحت تنهش أمريكا ، ومن بينها عبادة القانون الذى تحول إلى وثن ، إذ استحوذ هوس الإجراءات القانونية على العقلية الأمريكية . ومن المهم بنفس القدر أن نعرف أن « مودة » جديدة اجتاحت الولايات المتحدة فحواها أن سيادة القانون القائم على اجتهاد المحاكم المستمر فى تطوره ، تشكل تفوقا متزايدا لها على أوروبا . غير أن الواقع يختلف عن ذلك تماما . فهذا الهوس المتعلق بالإجراءات القانونية يحقق الثروة للمحامين ولكنه يجعل الأداء القضائية فى دولة القانون غامضة وخانقة ومرعبة . فقد أصبح كل شئ قابلا لإيجاد مبرر لرفع القضية ، والمحامون يحاصرون الصيد الثمين ويطاردون الصيد الضعيف بحاسة الشم المرهفة عند كلاب القنص .

وهناك مثال فى هذا الصدد ظل متمتعا بالشهرة . فقد اضطرت شركة أى . بى . إم إلى استئجار مبنى بأكمله فى واشنطن ليقيم فيه المحامون الذين أوكلت إليهم مقاضاة

الحكومة فى نزاع واحد .

وهكذا غدا القانون الذى تأسست أمريكا على قواعده ، والمنظم البارع « لمجتمع التعاقدات » ، أدغالا تتشابك فيها وتتعارض النظم الفيدرالية والمحلية العديدة ، مع الاجتهاد القضائى .

غير أن أساسا آخر من أسس المجتمع الأمريكى أصابه الضعف بشكل خطير فى تلك الحقبة يتعلق بنظام الجمعيات ، تلك الخلايا المحلية العديدة فى مجالات الرياضة وأعمال الخير والمجتمع الفئوى .. الخ التى حازت إعجاب المؤرخ توكفيل ، وكانت تجعل الحياة تدب فى المجتمع المدنى . إنها آلاف الجمعيات الغريبة فى الكثير من الأحوال ولكنها حية وقوية ، تنشر أفكارا حول الخير العام والإخلاص للوطن . ولكن أمريكا المتحررة فى الأوهام وجدت نفسها غير مسلحة بالقدر اللازم لمقاومة ذلك الإحساس الذى لا ينتمى أبدا إلى تقاليدها ، ألا وهو الاحتيال الوقح . أما « الأغلبية الصامتة » الشهيرة فكانت تتألم من ذلك التفكك الذى أصاب نسيجها الاجتماعى والنظام السياسى . وهكذا انتاب هـذا المجتمع الذى فقد الاتجاه نتيجة للتغيرات السريعة وهوس الإباحة الوافد من كاليفورنيا ، ذلك التطلع إلى العودة إلى القيم التقليدية والتعطش إلى التيقنات حتى الأولية منها بل والبالية .

وجاء خطاب رونالد ريجان بمضمونه المفتول العضلات والمبسط للأمور فى اللحظة المناسبة لتلبية تلك التطلعات . وقد عرف كيف يستغل الظروف الاقتصادية المواتية والمغالاة البيروقراطية وتدخلات الحكومة الفيدرالية والمناخ العام ، هذا عدا الوضع الدولى الذى ضاعف من تأثير رسالته « أمريكا تعود » .

التحدى الأمريكى الجديد

فاز رونالد ريجان ، مرشح الحزب الجمهورى فى انتخابات الرئاسة بنجاح ساحق إذ تغلب على منافسه جيمى كارتر بأغلبية تسعة ملايين صوت . وقد أدلت أربع وأربعون ولاية بأصواتها لصالحه من بين واحد وخمسين ولاية ، بل إنه نجح فى نيويورك وولايات الشمال الصناعية ، وهى مناطق النفوذ التقليدية للديمقراطيين . وفى عام ١٩٨٤ ، كانت إعادة انتخابه انتصارا باهرا إذ حصل على الأغلبية بفارق سبعة عشر مليون صوت .

والواقع أن أى معلق ما كان يتوقع مثل هذا الانتصار الذى حققه ريجان الممثل للجناح المحافظ فى الحزب الجمهورى ، وكان برنامجه الذى يتلخص فى عدد من المبادئ الكبرى ، مشبعا بأساطير مؤسسى أمريكا ورواداها الأوائل ، والتى راح يدافع عنها بإخراج بارع وقدرة خاصة على مخاطبة الجماهير .

فهو يؤكد أولا أنه يريد أن يعيد أمريكا إلى مركزها الأول على المسرح الدولى . ولابد من التخلص نهائيا من الإهانات والهزائم التى لحقت بها . ولن تكون هناك من الآن فصاعدا تلك الصور الفظيعة للهليكوبترات الأخيرة التابعة للجيش الأمريكى وهى تسارع بتأمين الجلاء عن سايجون ، أو صور جثث جنود البحرية الأمريكية المحترقة فى صحراء طاباس الإيرانية بعد فشل محاولات تحرير رهائن السفارة الأمريكية فى طهران فى ابريل ١٩٨٠ . ولن يكون هناك أبدا تخلف عن مساندة الحلفاء ولا استسلامات يرثى لها أمام « قوى الشر » . فأمريكا أول قوة عسكرية فى العالم وهى عازمة من الآن فصاعدا على أن تثبت ذلك ، خاصة أمام الهيمنة السوفيتية فى أواخر عهد برجنيف . فريجان هو الذى واجه السوفييت بذلك التحدى الخرافى « حرب النجوم » أو «مبادرة الدفاع الاستراتيجى » .

ماذا كان هناك ؟ لقد شرح رونالد ريجان ذلك فى ٢٣ مارس ١٩٨٣ أمام كل أمريكا فى خطاب أذيع عبر التليفزيون ودرس وقعه بكل عناية وكان مقتنعا به تماما . وقد أوضح بكل بساطة أن الأمر يتعلق بإلغاء أى احتمال لقيام حرب نووية بإقامة درع فى الفضاء قادر على اعتراض سبيل كل الصواريخ السوفيتية . فمبادرة الدفاع الاستراتيجى ستستغل بعض التقنيات المختبرة (الكشف الالكترونى والأقمار المدمرة)وغيرها المتوقعة (الليزر ومدافع الحزم الاكترونية.. الخ) بغية توفير الحماية الحاسمة للأراضى الأمريكية .

وقد أثار هذا المشروع الخيالى إلى حد بعيد مناقشات لا حصر لها بين الخبراء . فبعض مكوناته تحتاج فى الواقع إلى « قفزة تكنولوجية » كبرى دون أن يكون أحد واثقا تماما من صلاحيتها . أما من الناحية المالية فهو محفوف بالمخاطر حتى بالنسبة لأغنى دولة فى العالم . وقد خصص مبلغ مائتين وخمسين مليار دولار لتنفيذه ، منها ١٠ ٪ للأبحاث وحدها . وتلك تكاليف فادحة ، علاوة على التجاوزات المتوقعة التى لا يستطيع أحد أن يحدد حجمها .

وعلى النقيض من ذلك حققت « حرب النجوم » نجاحا إعلاميا وسياسيا لا نزاع فيه فتصميمها المستقبلى وهدفها (لا حروب بعد الآن) خلب لب الرأى العام العالمى وأثر حتى على اللامبالين . وهل هناك ما يمكن أن يستهوى العالم أكثر من هذا المفهوم الدفاعى الصرف لذلك الدرع الذى يحول دون تسليط سيف النار النووية على رقاب البشر ؟ وقد استغل ريجان صورة بلاغية مفحمة وهو يحلم بصوت مرتفع بالانتصار المقبل للدرع على السيف . أو ليس « الدرع » سلاح « الأبرار » بينما السيف سلاح « الأشرار » ؟ (وعلاوة على ذلك كان « درع الصحراء » الشفرة التى أطلقت فى أغسطس ١٩٩٠ على عملية الرد على ضمّ صدام حسين للكويت ، والتى تحولت فيما بعد إلى « عاصفة الصحراء ») . ومهما كانت إدانة أعداء مبادرة الدفاع الاستراتيجى خاصة فى أوروبا « لطموحات ريجان الخفية » ألا وهى وضع حد للتعادل النووى بتوفير الحماية مقدما للمواقع الاستراتيجية ، إلا أن تأثير « حرب النجوم » كان هائلا . أما الرسالة فكانت واضحة تماما : لقد استعادت أمريكا زمام المبادرة ، ولكن « حرب النجوم » لا تستخدم سوى الأسلحة الدفاعية . وهذا حسب مزاعم ريجان انطلاقة عسكرية وسلامية فى الوقت نفسه . ولنلاحظ أن بعض الانتصارات العسكرية الأمريكية فى حرب الخليج فى يناير ١٩٩١ أمكن تحقيقها بواسطة التكنولوجيا المأخوذة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجية .

أما التحدى التكنولوجى والمالى الهائل الذى ووجه به الاتحاد السوفيتى فقد أثبت أنه أكثر فعالية مما كان متوقعا . ففى نهاية الثمانينات ، وبعد عدة سنوات من البريسترويكا ، اعترف بعض المسئولين السوفييت بالدور الذى لعبته « حرب النجوم » فى استسلام النظام السوفيتى أيديولوجيا . ففى هذه المرة لم يتمكن الاتحاد السوفييتى من مواصلة عملية المقامرة العالمية الهائلة المتمثلة فى سباق التسلح . وفى المقابل ، كانت تلك الدفعة التكنولوجية المتمثلة فى مبادرة الدفاع الاستراتيجى رابحة على طول الخط بالنسبة لأمريكا ، لأن التحكم فى القرن الحادى والعشرين سيتم عن طريق الفضاء والمعلوماتية والليزر .

وفى نفس تلك الفترة ضاعف ريجان من تحركاته السياسية والدبلوماسية لمساندة حلفاء أمريكا فنصبت صواريخ برشينج فى أوروبا للتصدى لصواريخ إس إس ـ ٢٠ التابعة للجيش الأحمر ، وحصلت الحركات المعادية للشيوعية فى أنجولا وأفغانستان ونيكاراجوا

على مساعدات مالية مع الإعلان فى كل مكان عن العزم على دفع النفوذ السوفييتى إلى التقهقر . *فأمريكا تعود !*

وصاحبت تلك العودة الدولية عملية تجديد إرادية للرأسمالية الأمريكية فى صيغتها الغازية ، بلا أى عقد نقص . ففريق ريجان يشيد بأصحاب المنشآت ويشجب إسراف الحكومة وتبديدها للأموال ، ويدين الضرائب بشكل خاص باعتبارها الآفة التى تثبط همم المبادرين وتكبح قوى أمريكا الحية . فأمريكا قارة الأحلام والمجازفات ، حيث يستطيع أى فرد أن يصبح روكفلر شريطة أن تتحرر قوانين المنشأة الحرة « المقدسة » ، وأن يتذكر كل شخص أن « يدا » خفية ، هى يدّ آدم سميث والآباء المؤسسين لليبرالية ، ستجعل إثراء الفرد فى خدمة الجميع . عليكم أن تغتنوا ، وليصبح الأثرياء أكثر ثراء ! وليعمل الفقراء بدلا من انتظار معونة الدولة ، وكل تلك « البرامج الاجتماعية » ليست إلا تبريرا للكسل والتقاعس ! أما الحاجات الضرورية للمعدمين والهامشيين فستكفلها الأعمال الخيرية ، فتلك مسألة لا شأن للدولة بها . والرسالة بسيطة وهى تلقى آذانا صاغية .

بل إن هذه الرسالة تستمد قوتها الجديدة من ضروب الفشل السابقة والأزمة التى لحقت بأفكار كينز من خلال الانكماش الاقتصادى فى السبعينات . والواقع أن ذلك الانكماش كان نذيرا بالقضاء على تلك النظرية القائمة على تشجيع الطلب وعجز الميزانية ، والتى ساهمت من قبل فى نجاح « السنوات الثلاثين المجيدة » (١٩٤٥ - ١٩٧٥) فى أوروبا بالأخص .

ولنتوقف هنا لحظة . فسنرى أن ريجان لجأ إلى الإصلاح بإلغاء النظم وتحجيم دور الدولة . وهناك مجال واحد عمد فيه ، على العكس ، إلى دعم القوة الاتحادية بأن هيأ لأمريكا مشروعا طويل المدى ، له الأولوية ، ألا وهو الدفاع . ففى هذا المجال تخطى النجاح الآمال المعقودة عليه ، كما أكدت ذلك حرب الخليج .

ولنلاحظ هنا مفهوم المدى الطويل هذا لأن أمريكا ريجان نسيته فى كافة المجالات الأخرى ، مع أنه أساس قوة الصناعات الألمانية واليابانية .

ولم تكن أمريكا البلد الوحيد الذى دفن أفكار كينز فى عام ١٩٨٠ .. فقد فشلت فى أوروبا سياسات إنعاش الاستهلاك التى اتبعها چاك شيراك فى عام ١٩٧٥ وهلموت

شميدت فى ١٩٧٨ . والدرس الذى تم استخلاصه من حالات الفشل هذه يتناقض مع الأفكار التى ترسخت من قبل . فقد ظهر فى الواقع أن البطالة والتضخم يمكن أن يتعايشا معا ، على عكس ما كان يتم تدريسه فى كافة الجامعات . أما منحنى فيلبس الشهير ، الذى كان يسلم بعكس ذلك ، فلم يعد يصلح إزاء ذلك المرض الاقتصادى الجديد الذى يتفشى فى كل مكان ويحمل تسميته الوحشية : الركود التضخمى .

وتلك فى الواقع فكرة اقتصادية إعتبروا أنها قد تقادم عليها الزمن . وقد انبثقت مكانها وضدها تيارات جديدة راديكالية سيجعل ريجان نفسه بطلا لها . فاصحاب نظرية العرض (اقتصاديات العرض) والنقديون يقترحون بزعامة ميلتون فريدمان ، سياسة أخرى تسير فى عكس اتجاه أبسط المبادئ الكينزية . فشعاراتهم الرئيسية هى: تخفيض الأعباء الضريبية ، والسيطرة الكاملة على النقد ، وإلغاء النظم ، والتوسع فى الخصخصة . ففى أمريكا التى اهتدت ، يستعيد العصامى مكانه وتفقد الدولة مركزها .

وقد أجريت بالفعل عدة إصلاحات جذرية كان رأس حربتها قانون الإصلاح الاقتصادى الذى يتضمن ثلاثة بنود أساسية : البند الأول إلغاء القيود فى قطاعات النفط والاتصالات عن بعد والنقل الجوى والبنوك والمنافسة . والواقع أن إلغاء القيودكان قد بدأ فى عام ١٩٧٨ ، فى عهد جيمى كارتر ، إلا أنه أصبح يطبق من الآن فصاعدا بكل قوة . ويتعلق البند الثانى بالنظام الضرائبى . وقد تم إصلاح واسع النطاق فى هذا المجال يرمى إلى تبسيط الضريبة على الدخل ، وبلغى الاستنزالات ويحد من معدلات فرض الضريبة ، خاصة المرتفعة منها . والبند الثالث : مكافحة التضخم عن طريق إحكام الرقابة على الكتلة النقدية . وقد ركز بول فولكنر ، رئيس الاحتياطى الفيدرالى (الذى عينه جيمى كارتر فى هذا المنصب) ركز جهوده من أجل هذا الهدف بروح نضالية حازمة . وكانت النتيجة المباشرة ارتفاع سعر النقد وانتهى بذلك الحفل . فقد بلغت معدلات الفائدة مستويات مدهشة ، بل وتجاوزت الـ ٢٠٪ فى عامى ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ . وعلى الفور ارتفع سعر الدولار حتى تعدى عشرة فرنكات فرنسية فى بداية ١٩٨٥ . وتمكن مستشارو ريجان من تصوير ذلك على أن مركز الدولار أصبح قويا لأن الاقتصاد الأمريكى نفسه قوى .

وبغية استكمال ما ورد فى قانون الإصلاح الاقتصادى لجأت إدارة ريجان إلى خفض النفقات الاجتماعية بلا تردد وزيادة الميزانية العسكرية بالأخص . وربما كان هذا الاختيار موضع نزاع إلا أنه يتميز بوضوحه واتساقه . فخفض النفقات الاجتماعية يدل على استعادة الثقة فى الفرد وفى قوانين السوق . والمزيد من الاعتمادات العسكرية سيوفر القوة لأمريكا وإمكانات تحقيق طموحات مخططى الاستراتيجية فى فريق ريجان .

إنها سياسة الصدمات وصدمة سياسية : « *فالثورة المحافظة* » كما سماها عنوان كتاب لجى سورمان (الناشر فايار ، ١٩٨٣) ، تشق طريقها ، وإذا كانت لن تجتاح العالم بأسره ، إلا أنها ستخلب لبه .

أمريكا ، أمريكا

لقد عادت أمريكا . ومع الشهور الأولى تحولت هنا وهناك شكوك الذين كانوا لا يتصورون أن يستقر راعى بقر من هوليود فى البيت الأبيض ، تحولت إلى حذر ثم إلى فضول ، وأخيرا إلى دهشة مشوبة بالإعجاب . وجرى ذلك حتى عند بعض المثقفين الأوروبيين الذين كانوا يتندرون بذلك بالأمس. والحق أن قوة الرئيس الجديد تعود جزئيا إلى موهبته المهنية الشديدة فى استخدام التأثير الهائل لوسائل الإعلام لنشر رسالته . وقد استعان رونالد ريجان فى ذلك بفريق من خبراء الاتصال واستفاد من المواهب التى يحسده عليها العديد من رؤساء الدول . فهو يحدد جرعات تأثيره ، ويحرص على تلميع صورته « كسيد بيت » هادئ الأعصاب ، ومواطن أمريكى يحب مزرعته وغرب بلاده ، ويستأثر بوسائل الإعلام دون أن يعطى أبدا الانطباع بأنه يستنفد جهوده فى دراسة الملفات مثل كارتر . إنه رئيس لديه الوقت ... وهو شجاع حقا . ألم ينهض وهو يمزح فور محاولة اغتياله فى ٣٠ مارس ١٩٨١ ؟ ألم يخضع بلا مشاكل لعملية جراحية ركزت وسائل الإعلام الأضواء عليها ؟ وسيطلق عليه لقب « المنفتح الكبير » الذى سرعان ما توصلت أمريكا إلى تصدير صورته بلا مصاعب .

غير أن ريجان رجل سريع البديهة أيضا ، قادر على ركوب موجة الليبرالية التى تميزت بها الثمانينات . وهو يستغل تشاؤم الاشتراكية الديموقراطية الأوروبية . وبرنامجه يتفق مع « موضة » الحقبة . وهو يدرك ذلك ويعرف كيف يستفيد منها ، ولو بالخداع ،

لأنه قادر أكثر من أى شخص آخر على إخفاء جوانب الضعف والشك ، ومنها على سبيل المثال ذلك العجز الفاحش فى الميزانية الذى تضخم سنة بعد أخرى حتى أصبح أعمق عجز فى كل التاريخ الأمريكى . وهناك أيضا مساندته للحركات المشايعة للغرب فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية التى حدّ منها الكونجرس المناهض له .

ومع ذلك ورغم نواحى الضعف فإن أمريكا التى أحياها رونالد من جديد بلغت بسرعة أوج نفوذها بل إنها بدت وكأنها أصبحت مرة أخرى كعبة الرأسمالية القادرة على غمر العالم بأضوائها . وعلى أى حال فقد انتشرت دعوة ريجان كالنار فى الهشيم . وتصدر الأوروبيون مقدمة المسيرة وسرعان ما لحقت بهم بلدان العالم الثالث ، وراح البنك الدولى لإعادة البناء والتعمير وصندوق النقد الدولى يشجعان العالم الثالث أكثر من أى وقت مضى على اللجوء إلى السوق ، والمنافسة ، والقطاع الخاص . وانتشرت عمليات الخصخصة على نطاق واسع فى الجنوب على غرار أوروبا . أما السياسة النقدية فهى من وحى صندوق الاحتياطى الفيدرالى مباشرة . فالمطلوب القضاء على التضخم الذى ينهش فى الذمم المالية وتتآكل بفعله الدخول ويزيد من نواحى عدم المساواة .

وباختصار ، راحت أمريكا تسطع من جديد فى منتصف الثمانينات مثل النجوم التى تزين علمها ، وأصبحت تحظى مرة أخرى بالاحترام (أو التهيب منها) واستعادت حقا زعامتها ، والآخرون يحسدونها ويقلدونها .

أسس النفوذ الأمريكى

غير أن الشكوك بدأت تساور البعض فى تلك الحقبة . فهل تقوم حقا هذه النهضة الملفتة للأنظار على أساس أم أنها تعود إلى مواهب المشعوذ ريجان؟ وهل تعود نجاحاتها ، كما يعلن فى كل مكان إلى الفضائل « الايديولوجية » والفلسفية للريجانية أم أن هناك بعض الأوراق الرابحة أو المزايا التى تتمتع بها أمريكا ؟ وطرح هذا السؤال يعنى أصلا تقديم الإجابة . « فالتجديد » الريجانى الذى بهر عيون العديد من متخذى القرارات فى أنحاء العالم ليس فى الواقع معجزة اقتصادية على غرار ما كان بوسع بلدان مثل اليابان والمانيا الاتحادية وكوريا الجنوبية ، أن تتفاخر بها . فالعملية مختلقة إلى حد ما مع الولايات المتحدة لأن هناك امتيازات تتمتع بها .

فلديها أولا رصيد لا مثيل له ، وتركة اقتصادية ومالية وتكنولوجية هائلة تدر أرباحا وجدها ريجان عند وصوله إلى البيت الأبيض ، وهى :

الرأسمال المخزون الذى تراكم لدى الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب ولا يوجد مثيل له . فهى تملك داخل حدودها شبكات ممتدة من المرافق العامة الحديثة فى أغلب الأحوال : مطارات ، وطرقا سريعة ، وجامعات ، ومصانع ، وعقارات ..الخ . وفى الخارج تتحكم شركاتها المتعددة الجنسيات فى أرصدة لا تقدر قيمتها على حقيقتها لأن حساباتها تعتمد على ثمن شرائها دون الأخذ فى الاعتبار قيمتها الراهنة . ففى عام ١٩٨٠ كان رصيد الاستثمارات الأمريكية فى الخارج يبلغ ٢١٥ مليار دولار وأصبح ٣٠٩ مليار دولار فى عام ١٩٨٧ (بول منتريه، *أمريكا ونحن* ، الناشر دونو ، ١٩٨٩) . وهذا الرصيد لا يوفر فقط دخولا لها وزنها بل ويسمح لها بالاستفادة من السبق بدرجة كبيرة . ففى عام ١٩٨٨ كانت الاستثمارات المباشرة للشركات الأمريكية فى الخارج لا تزال تمثل ثلاثة أضعاف ما لدى اليابان من استثمارات فى الخارج .

والموارد الطبيعية فى أمريكا هى أيضا من أكبر ما يتوفر فى العالم . ومصادرها من الطاقة هائلة خاصة الغاز الطبيعى والفحم . ولديها كافة المعادن فيما عدا بعض الخامات الاستراتيجية . وأخيرا فإن حجم سكان أمريكا ، الرابع من حيث العدد ، هو الأول من بين البلدان المتقدمة ، وبشكل ثروة لا مثيل لها فى العالم . وباختصار فإن أمريكا تجلس فوق كومة من الذهب وهذا وضع مريح بالمقارنة مع اليابان مثلا التى لا تملك مواد أولية أو مصادر طاقة ، ولديها نسبة مرتفعة من المتقدمين فى السن ، وستعانى أكثر فأكثر من النقص فى اليد العاملة على مساحة أراضيها المحدودة .

وفى المجال التكنولوجى تتمتع أمريكا بمزية كبيرة بالمقارنة مع غيرها . فأكبر الباحثين وأفضل المهندسين وألمع الطلبة يتوجهون إلى الولايات المتحدة ليعملوا هناك سواء كان ريجان الرئيس أو لم يكن . وهم يحضرون معهم هذا الرأسمال المعروف الذى يتفق الجميع على أنه أثمن رأسمال ، وهو يتمثل فى المادة السنجابية الموجودة داخل أدمغتهم . وهناك دليل واحد يكفى لإثبات ذلك، وهو عدد جوائز نوبل التى يحصل عليها بانتظام العلماء الأمريكيون ، وسنة بعد أخرى تزود هجرة العقول أمريكا بالذكاء لأنها تتيح لأصحاب هذه العقول إمكانية الازدهار . وهذ ليس ريعا بل مزية مكتسبة ، وكثيرا ما

يقلل الناس من مدى أهمية ذلك . فالكل يعلم أن صواريخ پاتريوت الشهيرة تتضمن مكونات يابانية ، ولكن عدم تمكن سونى من إنتاج كاميرات ڤيديو بدون المكونات الدقيقة التى تنتجها شركة مونورلا الأمريكية لا يعامل على أنه حدث له أهميته.

الامتياز النقدى الذى أثبت أنه حاسم . فمنذ اتفاقيات بريتون وودز فى عام ١٩٤٥ ، أصبح الدولار المرجع فى التعاملات الدولية . وهو أيضا العملة الاحتياطية الدولية الرئيسية التى تحتفظ بها البنوك المركزية فى أغلب بلدان العالم . وهذا الامتياز الإمبراطورى الفريد يتيح للولايات المتحدة إمكانية دفع نفقاتها وتمويلها والاقتراض بعملتها هى . ويمتد هذا الامتياز إلى أبعد مما نتصور عادة . وقد شرح ذلك الاقتصادى الأمريكى چون نويلر بلا لف أو دوران (جريدة الموند ، ١٠ يوليو ١٩٩٠) إذ يقول:

« تصور للحظة أن كل شخص تلتقى به يقبل أن تدفع له ماعليك له بشيكات تصدرها بنفسك . وأضف إلى ذلك أن كل من يستحق شيكاتك الموزعة فى أنحاء العالم يمتنع عن صرفها ويستخدمها كعملة لتسديد نفقاته . وستترتب على ذلك نتيجتان هامتان بالنسبة لماليتك أنت . الأولى هى أن قبول كل الناس شيكاتك سيجعلك غيرمحتاج إلى استخدام العملات الورقية ، إذ سيكسون دفتر شيكاتك كافيا . والنتيجة الثانية هى أنك عند إطلاعك على كشف حسابك ستفاجأ بأن رصيدك يزيد على المبالغ التى أنفقتها . لماذا ؟ للسبب المذكور أعلاه ، وهو أن الشيكات التى أصدرتها يجرى تداولها دون أن يتم تحصيلها إذ أنها تنتقل باستمرار من أيد إلى أيد أخرى . أما النتائج العملية لذلك فهى أنك تجد تحت تصرفك قدرا أكبر من الموارد للاستهلاك والاستثمار . وكلما لجأ الآخرون إلى شيكاتك كعملة يتعاملون بها ، زادت الموارد الإضافية الموجودة تحت تصرفك ... » .

وبناء على ذلك يقدر نويلر أن الولايات المتحدة تمكنت من أن تضع تحت تصرفها حوالى خمسمائة مليار دولار تزيد على ما حصلت عليه من الضرائب التى يدفعها الأمريكيون ، والقروض التى يقدمها المدخرون الأمريكيون والأجانب . وهذا المبلغ ـ الخمسمائة مليار ـ يعادل واحدا وثلاثين سنة من المعونات الأمريكية للعالم الثالث (التى تبلغ فى الواقع ١٦ مليار دولار فى السنة) .

ويظل هذا الامتياز النقدى مهما للغاية ، وهو مصحوب بعدد من الامتيازات المالية التى لا تقل أهمية عن ذلك . فالمبالغ التى يتم تداولها يوميا من خلال الشيكات المالية

الأمريكية تقدر بألف ومئتى مليار دولار ، وهو ما يعادل إجمالى الناتج القومى السنوى فى فرنسا . وهكذا تسيطر أمريكا على أموالها وأموال الآخرين . ويشكل الدولار فى حد ذاته الدليل على تلك القوة كما أنه أداة تلك القوة .

الهيمنة الثقافية تظل هى أيضا قائمة رغم كل تقلبات التاريخ الأمريكى ، بل وتتدعم . فكأن أمركة العالم عملية تطور لا يمكن مقاومتها ، تستمد قوتها من حركتها الذاتية وتتغلب على الانتقادات وعمليات المقاومة المحلية دون أن يؤدى ذلك إلى إضعافها . والتوصل إلى الحداثة يعنى بالنسبة لآلاف الملايين من الناس فى العالم ـ بما فى ذلك فى الصين الشيوعية ـ وربما أكثر من أى مكان آخر فى العالم ، يعنى محاكاة أسلوب الحياة والتفكير الأمريكى . وتعتمد تلك الهيمنة الثقافية على ثلاثة عوامل على الأقل وهى : اللغة ، والجامعات ، ووسائل الإعلام .

والأمر واضح بالنسبة للغة . فالانجليزية أصبحت الاسبرانتو شبه المطلق فى العالم . والسائحون يستخدمونها بالطبع ولكن بالأخص العلماء ورجال الأعمال . وليس هناك منتج مطلوب أكثر من اللغة الانجليزية ، لغة الأمريكان والإمبراطورية ... ومن الأمور التى لا يطيقها مثلا أهالى كيبك المتكلمة باللغة الفرنسية أن المهاجرين الجدد القادمين من أمريكا اللاتينية أو آسيا لا يريدون أن يتعلموا سوى اللغة الأمريكية ليس إلا . وهناك الآن فى مجال الأعمال والتكنولوجيا بالذات لغة دولية لا تستخدم الانجليزية فقط بل وتستعير مضمونها من المفاهيم الرائجة فى الجامعات الأمريكية . إنها فى الواقع مجموعة من القيم والعادات وطرق التفكير التى تنتشر باستمرار فى كافة أرجاء العالم .

ومما لا شك فيه أن أداة الهيمنة الثقافية الثانية هى أقواها . وهى ترجع إلى النفوذ شبه المطلق لنظام التعليم العالى الأمريكى . فالجامعات الأمريكية الفنية والمرموقة (هارفارد ، ستانفورد ، وارتون ، بركلى ، ييل ، وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس ...) تجتذب فى الواقع خير العناصر القادمة من كافة أرجاء العالم . فنوعية التعليم الذى تقدمه ، ومواردها ، وإشعاعها يدفع النخبة إلى اللجوء إليها . وهذا لا يرضى فقط اعتزاز الأمريكيين بأنفسهم ، بل تمتد فعاليته بشكل عجيب إلى مدى أبعد . فأمريكا تنشر فى الواقع ثقافتها وقيمها وأساليبها على أعلى المستويات ، إذ يتحول الطلبة الأجانب القدامى الذين درسوا فى جامعاتها إلى خير دعاة لها فور عودتهم إلى بلادهم . وقد درس أغلب

القادة الجدد فى بلدان أمريكا اللاتينية فى تلك الجامعات ، وبدأ نفوذهم فى التأثير بشكل إيجابى لصالح التنمية الاقتصادية فى عدة بلدان . والمكسيك وشيلى خير مثالين فى هذا المضمار .

أما الكوادر الأوروبية الشابة فيحلمون بتلك العصا السحرية التى ستفتح لهم أبواب أحسن الشركات . وفى مجال التعليم الاقتصادى ، تتمتع أمريكا حتى الآن بما يشبه الاحتكار . وقد بلغت فعالية هذا التعليم حدًا يدفع الثقافة الاقتصادية العالمية إلى أن تتجاهل بكل بساطة كل ماهو غير أمريكى . فعلى سبيل المثال ، فإن اقتصاد السوق الاجتماعى ، على الطريقة الألمانية غير معروف تقريبا بالنسبة للمسئولين الاقتصاديين ، ومن باب أولى بالنسبة للرأى العام فى العالم .

وهذا الامتياز الثقافى مفيد بدرجة أكبر وأشد فعالية مما يتصور المرء . وهو يحقق لأمريكا مزايا تضارع مزايا الثروة المعدنية الانجليزية فى القرن الثامن عشر .

ووسائل الإعلام أداة تكميلية للهيمنة الثقافية ولكنها أكثر لفتا للأنظار ومعروفة على أوسع نطاق ، ولذا فهى أشد وسائل نشر الثقافة تعرضا للانتقاد ولا مجال للخوض هنا فى النقاش اللانهائى الذى يثيره بشكل دورى ـ لا فى فرنسا وحدها ـ المدافعون عن « الثقافة الوطنية » التى تهددها « الثقافة الأمريكية المتدنية » . ولنذكر حقيقة واقعة وهى أن الصناعة السينمائية والتلفزيونية الأمريكية ونماذجها فرضت نفسها بكل بساطة على العالم بأسره . وهذا لحسن الحظ أحيانا ، ولكن لسوء الحظ فى أغلب الأحوال ، ولكن لصالح أمريكا دائما .

وفى هذا المجال يتيح الإتقان المهنى والإنتاج بالجملة للولايات المتحدة فرص وجودها فى كل الأسواق تقريبا . وبالطبع فإن تعزيز قوانين السوق فى مجال الصناعة الثقافية وبالأخص خصخصة قنوات التلفزيون يتم لصالح الأمريكيين . ففى العديد من البلدان تكشف الشركات الخاصة فى مجال الاتصالات عن ميلها إلى الاستجابة لمقتضيات الربحية المباشرة بقدر أكبر من الاحتكارات الحكومية السابقة . فالمسلسلات الأمريكية التى تباع بأسعار تقل سبع أو ثمانى مرات عن تكاليف الإنتاج لنفس مدة الإرسال ينتظرها مستقبل مضمون . هذا عدا عشرات البرامج الترفيهية والألعاب والمسابقات

التلفزيونية العديدة التى تنتجها التلفزيونات الوطنية ، ولا تشتريها ، وإن كان تصميمها مستوحى مباشرة من النموذج الأمريكى الجديد . فأمريكا تعود !

* * *

ولكن هل هى انطلقت حقا ؟ هنا يكمن اللبس كله . وهو لبس يكشف عن أغلب التفسيرات الخاطئة والأوهام فيما يتعلق بالريجانية . والواقع أن أمريكا كانت تشهد فى عام ١٩٨٠ تدهورا وتراجعا نسبيين . ولكن أسس قوتها والمزايا المكتسبة بفضل استعدادات الشعب الأمريكى أولا والامتيازات التى حباها بها التاريخ ، كانت لا تزال متوفرة . وهكذا سرعان ما قيدت لحساب ريجان والريجانية بعض النجاحات الاقتصادية التى تعود أحيانا إلى وضع أمريكا ذاتها ، لا إلى حسن بلاء قادتها أو صواب سياستهم . إنه لخداع بصرى عجيب ! فالولايات المتحدة التى تعيش على مكتسباتها ، وفى أغلب الأحوال على الاقتراض ، وتستغل الامتيازات الموروثة ، وتتمتع بتفوق ثقافى قديم ، تمكنت من تمرير « سنوات ريجان » بلا مصاعب فى نفس الوقت الذى أعطت فيه الانطباع بأنها استعادت عضلاتها بجهود شاقة .

أما بقية العالم التى أصابها الذهول وساورتها الشكوك : فقد حيت الخدعة متصورة أن الأمر يتعلق بوصفة تحقق المعجزات . فهل كانت الريجانية معجزة ؟ الواقع أن القضية كانت تنصب على معرفة ما إذا كان الأمريكيون قد استفادوا على خير وجه من تراثهم فى عهد ريجان وما إذا كانوا يواصلون استثماره . ولو نظرنا إلى السنوات العشر الأخيرة ، بعد انقضائها ، لوجدنا أن تجربتها ليست قاطعة . فبوسع المرء أن يزعم أن الأمريكيين بددوا جزئيا ذلك التراث وأن « الريجانية الجديدة » أقرب بالأخص إلى تلك الأضواء الأخيرة التى تصدر عن الإمبراطوريات وهى فى طريقها إلى الانحدار . أما المتفرجون فى الخارج فيستقبلون تلك الأضواء بالتصفيق وقد خدعتهم أوهام القوة وقوة الأوهام .

فبعد عشر سنوات من استعادة المجد ، تنطفئ أضواء كثيرة فى أمريكا . فعالم التفاؤل الذى يجسده ميكى ماوس ، ومكوك الفضاء ، وحرب النجوم ، وعمليات شراء الشركات الأجنبية الناجحة ، لم يعد تلك الجنة التى يتصورها البعض حتى الآن . فخلف الديكورت والأضواء الخاطفة تتستر حقيقة مختلفة إلى حد كبير .